

الجهود البلاغية لمحمد بن عبد الله التنسي، كتابه نظم الدرّ والعقيان القسم الرابع في محاسن
الكلام نموذجاً

Title in English (Times New Roman; size-12; Interline 1,15)

أ.د. خضر قدور قطاوي *¹

¹ جامعة الشلف (الجزائر) guettaoui1959@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2024-09-01 تاريخ القبول: 2024-12-07 تاريخ النشر: 2024-12-19

مُلَخَّصُ الْبَحْثِ

يتناول هذا البحث دراسة مدونة لغوية في علم البديع أحد فروع علوم البلاغة الثلاثة، علم المعاني، والبيان، والبديع، موسومة بنظم الدرّ والعقيان، القسم الرابع في محاسن الكلام، لمحمد بن عبد الله التنسي الجزائري (ت899هـ . 1494م)، ودراسة التراث اللغوي الجزائري له ما له من الأهمية في ربط الحاضر العلمي بالماضي الأصيل. وإشكالية البحث منحصرة في البحث مدى ما حققه منهج التنسي في دراسته لعلم البديع، وشملت دراستنا سبعة أبواب تطرق إليها التنسي، وهي: بيان فضل الشعر وذكر شيء من فوائده، والتشريع، والتجنيس، والتوجيه، والطباق، ومراعاة التّظهير. وفي العكس. ووقفنا على حديثه عن الشعر وأهميته ومزجه بدراسة علم البديع مع مسلك التيسير التعليمي لهذا العلم. وهذا من أهم النتائج العلمية التي وقفنا عليها في البحث. الكلمات المفتاحية: التنسي، البديع، التوجيه، الطباق، العكس.

Abstract:

This research concerns the study of a linguistic code within the science of rhetoric, specifically the branch of rhetoric known as ElBadi'a, one of the three branches of the science of rhetoric, the science of meaning, eloquence, and ElBadi'a. It is

* المؤلف المرسل: أ.د. خضر قدور قطاوي

entitled Nizam Al-Durr and Al-Aqyan, the fourth section in Mahasin Al-Kalam, by Mohammed bin Abdullah Al-Tansi (d. 899 AH-1494 AD), and the study of Algerian linguistic heritage are of significant importance in establishing a link between the scientific present and the authentic past. The research question is limited to an investigation of the extent to which Al-Tansi's approach has been successful in his study of Badi'a. Our study encompasses seven chapters addressed by Al-Tansi, namely: demonstrating the virtues of poetry and mentioning some of its benefits, the art of the construction of a verse on two rhymes, paronomasia, counterpoint, orientation, the observance of the analogue and reverse. We studied his discourse on poetry and its importance and combined it with the study of Badi'a with the path of educational facilitation of this science. This is one of the most important scientific findings of the research.

Keywords: *Al-Tansi, Rhetoric, Orientation, Counterpoint, Reverse*

يَعَدُّ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْجَلِيلِ التَّنْسِيَّ التَّلْمَسَانِيَّ مِنْ أَكْبَارِ عُلَمَاءِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْمَهْجَرِيِّ فِي الْجَزَائِرِ الَّذِينَ أَلْفَوْا فِي الْبَلَاغَةِ وَبِالضَّبْطِ فِي عِلْمِ الْبَدِيعِ، وَلَكِنْ تَأْلَيْفُهُ يَخْتَلِفُ عَنِ الَّذِينَ أَلْفَوْا فِي فنِّ الْبَدِيعِ قَبْلَهُ، فَقَدْ جُمِعَ بَيْنَ الْحَدِيثِ عَنِ الشَّعْرِ وَفَضْلِهِ وَبَيْنَ عِلْمِ الْبَدِيعِ، وَنُظِمَ التَّنْسِيَّ كِتَابَهُ وَفَقَ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ جُمِعَ فِيهَا جُلُّ مَا لَهُ صِلَةٌ بِالْبَدِيعِ جَاءَتْ كَالْآتِي:

الباب الأول: في بيان فضل الشَّعْرِ وذكر شيء من فوائده.

الباب الثاني: التَّشْرِيع

الباب الثالث: في التَّجْنِيس.

الباب الرابع: في التَّوْجِيه.

الباب الخامس: في الطَّبَاق.

الباب السادس: في مراعاة النَّظِير.

الباب السابع: في الْعَكْس.

وإشكالية البحث قائمة على أي مدى أستطاع التنسي أن ينماز عن غيره من العلماء فيخرج عن التقليد في دراسته للبديع؟ وما المنهج الذي سلكه في دراسته؟ وللإجابة عن هذا السؤال فقد سلكنا المنهج الاستقرائي بحيث درسنا الكتاب كله ووقفنا على كل باب من أبوابه وقمنا بتحليل ما قرأناه عارضين دراسته على دراسات سبقته كما فعلنا مع ابن رشيق وغيره من العلماء.

وقد بدأ كتابه بالباب الأول (في بيان فضل الشعر وذكر شيء من فوائده)، فأورد في فضله حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً».¹ ويأتي على إيراد الكثير من الأحاديث والأخبار التي وردت في فضل الشعر قال: «وروى عيسى بن طلحة أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قال: الشَّعْرُ الْحَسَنُ مِمَّا يَزِينُ اللَّهَ بِهِ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ».²

ومن الحضارة بمكان أن نعلم بأن العرب - خاصة - بعد إسلامهم كانوا يحثون على حسن السمع للشاعر، ونجد هنا التنسي يورد حادثة تدلنا على ذلك، وهي حادثة فعلاً طريفة يقول: «مرّ الزبير بن العوام - رضي الله عنه - بمجلس لأصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وحسّان ينشدهم فلم ير فيهم حسن الإصغاء فقال: ما لي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة؟ لقد كان ينشد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يُشغَلُ عنه إذا أنشد».³

وقد كانت العرب في الجاهلية أيضاً تحث على حسن الاستماع، لأنهم كانوا يرونه طريقاً للإجابة الحسنة، والتواصل السليم، ولذلك ورد في أمثالهم: أَسَاءَ سَمْعًا فَسَاءَ جَابَةً».⁴

والجمع بين الحديث عن الشعر وفوائده ودوره في الحياة وخصائصه مع علم البديع ميزة عرف بها المغاربة خاصة، يقول نوري سودان محقق نظم الدرر والعقيان: «وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الحقيقة فقال: وإنما اختصّ بأهل المغرب من أصنافه أصناف علم البيان علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعري».⁵

ولعلّ أبا عبد الله التنسي اتخذ ابن رشيق قدوة له، وابن رشيق قدوتهم جميعاً، يقول نوري سودان: «وهو قدوة المغاربة، والأندلسيين في هذا الفنّ، وجرى على منحاة وتأثير كثير من مواضع كتابه، وإن اختلفا في النوعية والكمية. فتارة يشتركان في الموضوع ويختلفان في المادة، وتارة يختلفان

في الموضوع ويشتركان في المادة، فعنوان هذا الباب مشابه لعنوان الباب الأول في العمدة، باب في فضل الشعر بالرغم من اختلاف مادّتيهما». ⁶ "قلت بل الباب الثاني في العمدة الموسوم بـ(باب في الرّدّ على من يكره الشّعْر) فيه مما أورده التنسي. ⁷"

ولم يتفرد ابن رشيق بالدفاع عن الشعر وتبيان مزيته بل نلفي عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) هو الآخر يعقد فصلا في الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه، وذمّ الاشتغال بعلمه وتتبعه. ⁸ "إلا أنّ الجرجاني مهدّد بحديثه عن الشعر ليتناول علم المعاني، وكذلك نجد عالما آخر هو المظفر بن الفضل العلويّ (ت 656هـ) يؤلف كتابا في الدّفاع عن الشعر وسمه بـ: نَصْرَةُ الإغريض في نصرة القريض، وقد حققته الدكتورّة نهي عارف الحسن من أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة اللبنانية، ونشرته مطبعة طربين بدمشق سنة 1976م. وجمع تعريف البلاغة والفصاحة، والحقيقة والمجاز، والصنعة والمصنوع، والقوافي، وتعريف النحو وعلم البديع، ثم ضرائر الشعر، والنقد، وغير ذلك. ومما يناسب ما عند التنسي الفصل الثالث الذي جعله (في فضل الشعر ومنافعه، وتأثيره في القلوب ومواقفه). ⁹ "، و لا يوجد التشابه في منهجية دراسة التجنيس عند التنسي بما هو عند المظفر العلوي ¹⁰ " إذ تنول بطرق مختلفة. باستثناء القليل منها. وسنأتي على ذكرها.

الباب الثاني في ذكر التشريع

يبدأ التنسي في دراسة التشريع بالتعرف على نوعه ومصطلحه يقول فيه: «وهو أحد أنواع الاقتدار، وهو من بديع الكلام، ويسميه بعضهم الفصل والوصل». ¹¹ " ويعتمد كتب الأندلسيين قينقل لنا من كتاب الكافي للرندي قوله: «ومن محاسن الشعر الوصل والفصل، وهو أن ينشأ الشّعْر منقسما بقسمين فأكثر في مواضع متوازنة من أبياته، فإذا قطع قسمٌ من تلك الأقسام عما قبله، كان الباقي تامّ الوزن والمعنى، وكذلك إذا أسقط شيء منها تمّ وصل ما قبله بما بعده، وربما قدّم بعض تلك الأقسام وأخر بعضها فينفكّ من الشّعْر بذلك بحسب ما تقبله أقسامه». ثم أورد لنا نموذجا من ما ينفصل منه قطعة فيكون شعرين وهو قول الحريري في المقامة البغدادية:

يَا حَاطِبَ الدُّنْيَا الدِّنْيَةُ إِهْمَا شَرُّكَ الرَّدَى وَقَرَارَةُ الْأَكْكَدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكْتَ فِي يَوْمِهَا أَبْكْتَ عَدَا بُعْدًا لَهُ َلَا مِنْ دَارِ
وَإِذَا أَظْلَلَّ سَحَابُهَا لَمْ يَنْتَفِعْ مِنْهُ صَدَى لِحْهَامَةِ الْغَرَارِ

وذكر نوعاً ثانياً يصير ذا ثلاثة أشعار دالي، ورائي، وبائي وأورد له هذا النموذج الشعري¹²

يَا مَنْ تَمَلَّكَ فَأَعْتَدَى رَفَقًا يَمَنْ بِحَشَاةِ جَمْرٍ مُضَرَّمٌ بِعَنَابٍ
جَاوَزْتَ فِي الْهَجْرِ الْمَدَى فَارْحَمْ فَمَا لِي عَنْكَ صَبْرٍ كَمْ تُطِيلُ عَذَابِي
إِنْ كُنْتُ تَجْهَلُ لَوْعَتِي فَاسْأَلْ بِهَا دَمْعًا يُثَرِّ لِحُرْقَةِ الْأَوْصَابِ
فَمَصُونُ سِرِّي قَدْ بَدَى وَهَلْ احْتَفَى فِي الْحُبِّ سِرٌّ وَالتَّوَسُّعُ دَائِي
اللَّهُ فِي دَمِ عَاشِقٍ قَدْ شَقَّه شَوْقٌ وَهَجَرٌ جَرَّعَاهُ بِصَابٍ
لَوْ يَمْلِكُ الْأَمْرُ افْتَدَى مِمَّا بِهِ فِي الْحُبِّ أَسْرٌ مُسْتَرْقٍ رِقَابٍ
سُنُّنُ الْهَوَى تَقْضِي بَأْنَ يَرْضَى اخْتِمَالَ الضَّيِّمِ حُرٌّ لَيْسَ ذَاكَ بِعَابٍ
يَضْحَى الْعَزِيزُ مُعَبَّدًا لِحَبِيبِهِ مَا ذَاكَ نُكْرٌ فِي رِضَا الْأَحْبَابِ

ويعلق الشيخ التنسي على هذا النص الشعري بقوله: «ولم يقع في هذا النوع أسلس لفظاً وأسهل معنى وأحلى في الأسماع من هذه الأبيات». ¹³ ثم يأتي التنسي على ذكر جميع أنواع الوصل والفصل في ما يسمى بالتقسيم. حتى يذكر ما هو من خمسة أشعار واستشهد له بقول الشاعر¹⁴:

قل للمليك أخي الندى والتائل الهطال للشعراء والقصاص
لا زلت تنتهك العدى بالذابل العسال في الأحشاء والأكباد
ووقيت من صرف الردى والتازل المغتال بالأعداء والحساد

ويروي بعده أن الرعيني لما أنشد هذه القصيدة قال: «هذا الذي صنعه هذا الشاعر حسن من جهة الصنعة إلا أنه لا يستقيم على قانون أوزان الشعر العربي؛ لأنّ في هذه الأبيات وقوع البيت من خمسة أجزاء، ولم يسمع من العرب، وفيها وقوع الكامل مشطوراً ومنهوكاً وذلك غير مسموع»¹⁵.

ولكن هنا نكتشف رأياً للتنسي في منتهى الدقة العلمية والتفتح على الجديد في أوزان الشعر، فهو يرد على الرعيني الذي خطأ الشاعر في الوزن، يقول التنسي: «وهذا غير خاص بهذه القطعة، وهؤلاء الفضلاء غير جاهلين بهذا، وإنما مقصدهم إظهار قوة الملكة لا غير». ¹⁶ وللتنسي استقصاء حول هذا الفن يمكن مراجعته في موضعه من هذا المؤلف الذي تناولناه بهذا البحث.

الباب الثالث في التجنيس

كان من أوائل العلماء الذين تناولوا الحديث عن التجنيس في مؤلفاتهم ابن المعتز المتوفى سنة 296هـ في كتابه البديع وعرفه بقوله: «وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لهل أن تشبهها في تأليف حروفها». ¹⁷ وقسمه إلى قسمين فقال: «فمنه تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها ويشق منها». ¹⁸ ومثل لها بقول الشاعر ¹⁹:

يوم خلجت على الخليج نفوسهم

وأما الثاني فهو أن تجانس الكلمة أختها في الحروف دون المعنى واستشهد له بقول الشاعر ²⁰:

إن لوم العاشق اللوم

ثم توالى ذكر العلماء له كابن قدامة، وأبي هلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني، وابن الأثير وغيرهم. والتنسي يختار من رسومهم ما عبر عنه بقوله: «ورسمه بعضهم بأنه اتفاق لفظين أو ألفاظ في جميع الحروف أو في أكثرها مع اختلاف المعنى، وشرطه ألا يبعد ما بين اللفظين، بل يكونا في جملة، أو في جملتين متصلتين». ²¹

والملاحظ هنا في التعريفين السابقين للتجنيس أن التنسي لم يذكر فيه ما له صلة بتجنيس المعنى الذي جعله المظفر العلوي قسما من أقسام التجنيس، ولم يشر هو الآخر له في التعريف حين عرفه بقوله: «وهو أن يأتي الشاعر بكلمتين مقترنتين متقاربتين في الوزن غير متباعدين في النظم، غير نافرتين في الفهم، يتقبلهما السمع، ولا ينبو عنهما الطبع». ²²

لكن جعله كما ذكرنا قسما خامسا وعرف هذا النوع بأنه الذي يأتي فيه الشاعر بألفاظ يدل بمعناها على الجناس، وإن لم يذكره، واستشهد له بقول الشاعر يذكر المهلب بن أبي صفرة:

حدا بأبي أم الرئال فأجفلت نعامته عن عارض يتلهّب

وفي البيت تنويه بفعل المهلب بقطري بن الفجاءة أحد زعماء الخوارج الذي كان يلقب أبا نعام، فكأنه أراد أن يقول: حدا بأبي نعام فأجفلت نعامته، أي: روحه، فلما لم يستقم له الوزن استعمل مكان ذلك بأبي أم الرئال وهي النعام أيضا. ²³

ثم إن أنواع التجنيس عند المظفر بن الفضل العلوي ثلاثة عشر نوعا وهي كالآتي:

1. التجنيس المحض

2. تجنيس اللفظ

3. التجنيس المغاير

4. التجنيس المقارب

5. تجنيس المعنى

6. الجنس المطمع

7. التجنيس المبدل

8. الجنس المختلف

9. تجنيس الخطّ

10. تجنيس البعض

11. الجنس المتمم

12. تجنيس القوافي

13. التجنيس المماثل

وعند أبي عبد الله التنسي على النحو الآتي:

1. التجنيس التام،

2. التجنيس المحرف

3. التجنيس الناقص

4. المضارع

5. اللاحق

6. تجنيس القلب

7. الملحق بالجناس

8. تجنيس الخطّ

9. تجنيس الإشارة

10. التجنيس المشوش

ولكن ههنا ملاحظة هامة تتعلق بمنهج التنسي في التعامل مع الموضوعات الغزيرة المتعلقة بأنواع التجنيس، فما نجدّه عند المظفر بن الفضل العلوي مثلاً في الرقم 10 وهو التجنيس المماثل نجدّه قسماً من أقسام التجنيس التام عند التنسي؛ لأنه قسّم التامّ إلى مطلق ومركب، ثم قسم المطلق إلى قسمين أيضاً، وهما المماثل والمستوفي، ويشير هنا أيضاً إلى تفرّيعات دقيقة تتعلق بهيئة هذه الأنواع من الجناسات، فالمماثل عنده هو ما اتفق اللفظان فيه نوعاً، كأن يكونان اسمين مفردين، أو جمعين، أو مختلفين إفراداً وجمعاً، أو يكونان فعلين، أو يكونان حرفين، وأتى بكل مثال لكل نوع وهذا غاية الاسقصاء في بحث المسائل البلاغية. ونأخذ مثال المماثل، الذي استشهد له بقول الشاعر عبد الله بن طاهر:

وإني للثغر المخوف لكالي ولثغر يجري ظلّمه لرشوف

لقد عابت العلماء سلوك الإكثار من السجع الذي يلقي بالأديب إلى سجن التكلف وشينه، حتى قال ابن حجة الحموي: «أماّ الجناس فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب، كذلك كثرة اشتقاق الألفاظ، فإنّ كلا منهما يؤدي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة». ²⁴ والتنسي وإن لم يشر إلى هذا العيب في مقدمته فإننا لا نعدم رأيه في انتقائه للأمثلة الرائعة التي لا تكلف فيها والتي كانت من عيون الشعر المنتقاة قبله من قبل العلماء يقول معلقاً على بيت عبد الله بن طاهر الذي مرّ آنفاً: «ولم يرد عند القدماء في هذا النوع أحسن من هذا البيت، لسلامته من التكلف مع جمعه فيه بين غزل وحماسة». ²⁵

ويستدل في بعض مواضع أنواع التجنيس بأي القرآن الكريم، وأحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — مثل استشهاده في اللاحق ²⁶ بقوله تعالى: ﴿وجئتك من سبإ بنياً يقيناً﴾، وقوله — صلى الله عليه وسلم — في المضارع ²⁷ منه: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة». ²⁸

والتجنيس فيها كما هو معلوم لا تكلف فيه. وبعد أن فصل القول في جميع أنواع التجنيس انتقل إلى باب التوجيه.

الباب الرابع في التوجيه

عرّف التنسي التوجيه بقوله: «وحقيقته أن يؤتى بكلام يحتمل معنيين أحدهما مدح والآخر ذمّ». ²⁹ ولكنه يذكر لنا أن هذا التعريف هو ما عليه أكثر البيانين، وكثير منهم أطلقوه في كل كلام إحتمل معنيين بدون تخصيص.

ويلاحظ هنا استخدام التنسي للمنطق من خلال التقاليد التي أوردتها من حيث التناظر والتباين. فيستنتج كل الصور التي قد يرد فيها التوجيه انطلاقاً من هذا المفهوم العام له. فيقول: «فيتنوع التوجيه على هذا المذهب إل ما احتمل معنيين مستحسنين، وإلى ما احتمل معنيين مستقبحين، وإلى ما احتمل معنيين غير حسنين ولا قبيحين، وإلى ما احتمل معنيين مستحسنين ومستقبحين وهو المتفق عليه، وإلى ما احتمل معنيين أحدهما مستحسن والآخر غير مستحسن ولا مستقبح، وإلى ما احتمل معنيين أحدهما مستقبح والآخر غير مستقبح ولا مستحسن فمجموع ذلك ستة أنواع». ³⁰

ثمّ ينتقل من التنظير القاعدي المنطقي إلى الدرس التطبيقي فتراه يمثل لكل نوع مع الشرح، ونختار نموذجاً واحداً منه قال التنسي: «فمثال الأول: قول أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - للذي سأله حين هاجر مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: من هذا الذي أمامك؟ فقال: هاد يهديني السبيل، فإنّ الهادي يطلق على الدال على السبيل المنجية من الهلاك شرعاً دنيا وآخرة، ويطلق على العرف بالبلاد الدال على طرقها الموصلة إلى الأماكن المرادة. وكذلك السبيل يطلق على الطريق الحسية والمعنوية». ³¹

والمثال الذي وظفه هنا يدل طول باعه في رواية الحديث ومعرفته بالسيرة النبوية، ولطالما نصادف في مصنفه هذا الاستدلال بالأحاديث النبوية. ومن عجيب أمثلة التنسي هنا أنه قد يأتيك بما يروح عنك متاعب القراءة والتحصيل كالمثال الذي ساقه عن النوع الثالث، أي: ما احتمل معنيين غير حسنين ولا قبيحين، فقد مثل له بقول أعرابيّ قيل له: أتهمز الفأرة؟ قال: الهرّ يهمزها. وذلك أن الهمز موجه إلى النبر، وإلى النخس. ³²

إذا تداخل مصطلحان فإن التنسي ينبه عليه ويبين أوجه الخلاف فيه وهذا ما فعله هنا مع التورية إذ نبه على أن بعض البيانين جعلها من التوجيه، ثم شرع في تعريفها وتبيان أنواعها من مجردة³³، ومرشحة³⁴، ومبينة³⁵، ومهيأة³⁶.

الباب الخامس في الطّباق

عرّف التنسي الطّباق بعد أن ذكر له مصطلحا ثانيا هو المطابقة بقوله: «وحقيقته ذكر شيء ومقابله، أي: منفيه من حيث الجملة حقيقيا كان أو اعتباريا، تقابل التّضادّ أو غيره».³⁷

وإذا عدنا إلى السكاكي فإنه أطلق عليه مصطلح المطابقة وجعلها من أقسام البديع المعنوي إلى جانب المقابلة والمشاكلة ومراعاة النظر والمزاوجة واللف والنشروالجمع والتفريق والتقسيم والجمع مع التفريق والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والتقسيم والإيهام وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتوجيه وسوق الكلام مساق غيره والاعتراض والاستتباع والالتفات وتقليل اللفظ ولا تقليله³⁸. وإنما أتينا على تقسيمات السكاكي للبديع المعنوي لنعلم ما نَحْجه التنسي فأنت ترى كيف جعل التقسم والتوجيه أيضا قسما من أقسام البديع المعنوي إلى جانب الأبواب التي تناولها بالدراسة وهي: التّشريع والتّجنيس والطّباق ومراعاة التّظير والعكس. فهو لا يخالف ما اتفق عليه من سبقه من العلماء.

ومصطلح الطّباق والمطابقة يطلق عليه التطبيق أيضا كما هو عند ابن عربشاه³⁹ والتضاد كما هو عند ابن يعقوب المغربي.⁴⁰ ولذا فما ذكره التنسي من تعريف المطابقة « ذكر شيء ومقابله، أي: منفيه من حيث الجملة حقيقيا كان أو اعتباريا، تقابل التّضادّ أو غيره». كان تعريفا جامعا مانعا؛ لأنه تناول أفراد الجنس الواقعة تحت هذا الحدّ الاصطلاحي. فذكر الشيء ومقابله هو نفسه ما عند السكاكي الجمع بين متضادين. وهما المعنيان المتقابلان في الجملة. سواء كان تقابل الضّدين أو تقابل الإيجاب والسلب وهذا ما أشار إليه التنسي بقوله: (أو غيره). كما أن التنسي لم يفتنه في الحدّ الإشارة إلى طباق تقابل التّضاييف وتقابل العدم والملكة من خلال ذكره للحقيقة والاعتبار، فهو يعتبرهما من المطابقة وإن كان من يرى أن تقابل التّضاييف لا يعد طباقا، إذ لا يعدّ الجمع بين الأب والابن طباقا.⁴¹ ولكن باعتبار النظر يصح وهو المعتمد في تعريف الحافظ التنسي.

وتطرق التنسي إلى جميع أنواع الطباق التي صنفها العلماء بجميع الاعتبارات، منها هو بين لفظ ولفظ، واستدل لها بقوله تعالى ﴿وتحسبهم أيقاضاً وهم رقود﴾⁴² وبين لفظين ولفظين كقوله تعالى ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾⁴³ وبين ألفاظ وألفاظ ومثل لهذا النوع بقول الشاعر⁴⁴:

الْعِلْمُ رَيْحٌ وَارْتِفَاعُ الْجَهْلُ حُسْرٌ وَانْتِصَاعُ

وهكذا سار مع ما يتفق في الاسمية وما يتفق في الفعلية، وبين مختلفين في الاسمية والفعلية، وبين متفقين في الحرفين ومثلوه بقوله تعالى ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾⁴⁵، ولم يفته دقائق الطباق نحو المتقابلان في المعنى الحقيقي والمجازي، أو بينهما نحو قول دعل الخزاعي:

لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحَكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

وهو هنا أيضاً لا يجعل المقابلة قسماً قائماً بذاته من أقسام البديع المعنوي بل يلحقها بقسم الطباق ويطلق عليه مصطلح طباق المقابلة، ويذكر بعد ذلك الطباق الخفي وإيهام الطباق، ثم الملحق بالطباق ومنه اللف والنشر، وإثماً جعله من الملحق بالطباق لأنه لا منافاة حقيقية بين النوعين فقد يتواردان ويفترقان. وتفصيل الكلام يمكن العود إليه في مظانه من هذا المؤلف.⁴⁶

الباب السادس في مراعاة النظر

كنا قد ذكرنا أن من منهج الحافظ التنسي أنه يهتم بذكر مصطلحات النوع الذي يروم الحديث عنه لذا يذكر بأن من مصطلحات مراعاة النظر: التناسب، ويسمى أيضاً الائتلاف. وأورد بهاء الدين السبكي إلى ما ذكر التوفيق وكان يرى أن الأحسن تسميته التأليف ليوافق تسمية التوفيق⁴⁷. ثم شرع التنسي في تبيان حقيقة حدّه فقال: «حقيقته أن يُجمع بين أمر وما يناسبه، دون تضاد ليخرج الطباق».⁴⁸ وتعرض أيضاً إلى أنواع مراعاة النظر، أي: الأنماط التي يرد على شكلها. من ما تكون فيه المناسبة بين المعنى والمعنى، وبين اللفظ واللفظ، وبين اللفظ والمعنى ومن رام تفاصيل هذا الباب فعليه بالمصنف.⁴⁹

الباب السابع في العكس

يذكر التنسي أيضاً جميع مسمياته العلمية وهي: العكس والقلب والتبديل، ويقسمه إلى قسمين: ما تنعس فيه الكلمات وما تنعكس فيه الحروف، ويمثل للأول بقولهم: (عادات السّادات سادات

العادات). وهذا تعاكس بين أجزاء المبتدأ في الخبر. وله فيه تفاصيل يمكن العود إليها في مظاهرها من مؤلفه. "50"

الباب الثامن في الاقتباس

وهو الباب الأخير من القسم الرابع الموسوم بمحاسن الكلام، ولم يذكر له تسمية أخرى، وعرفه فقال: «وحقيقته عند الجمهور أن يؤتى في الكلام المنشور أو المنظوم بألفاظ تشبه القرآن أو الحديث، غير مراد بها أنها لفظ القرآن أو الحديث». "51" ولم يتعرض لتعريفه لغة كما عرفه ابن السبكي لغة بقوله: «أما الاقتباس فهو مأخوذ من اقتباس الضوء». "52"

ونبه التنسي على أمر مهم في الاقتباس وهو «أن الاقتباس تارة يوافق معناه معنى المقتبس منه، كقول الحريري: فلم يكن إلّا كلمح البصر أو هو أقرب، حتى أنشد فأغرب، فإنه كنى به عن شدة القرب وكذلك المعنى هو في الآية الكريمة». "53" «وتارة يخالف معناه معنى المقتبس منه». "54" ومثل له بقول ابن الروميّ يخاطب رجلاً مدحه ولم يحزه:

لَئِنْ أَخْطَأْتُ فِي مَدْحِكَ مَا أَخْطَأْتُ فِي مَنَعِي
لَقَدْ أَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

«فقد كنى به عن الرجل الذي لا يرجى خيره، وليس ذلك هو المراد في الآية الكريمة». "55" وهذا يدل على أن التنسي كان يستقصي كل ما تعلق بالبدیع أصولاً وفروعاً. وكما تناول الاقتباس من القرآن الكريم تعرض أيضاً إلى أمثلة الاقتباس من الحديث النبوي الشريف نحو ما مثل به من قول الشاعر:

قال لي: إِنَّ رَقِيبِي سَيِّئُ الْخُلُقِ فَدَارِهِ
قُلْتُ: دَعْنِي وَجَهْلُكَ الْجَنَّةُ حُقَّتْ بِالْمَكَارِهِ

لفظ الجنة كما ترى في لفظ الحديث مؤخر عن لفظ حقت. ونص الحديث: حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات. "56" ثم ساق أمثلة من عيون الشعر العربي تطبيقاً على ما قدمه. خاتمة الكتاب: ختم الكتاب بأدعية، ثم عرج إلى الحديث أن الغرض من الكتاب قد تحقق، وأشار بأنه تحرى فيه الصواب جهده، وأنه سلك سبيل الإيجاز والاختصار. وقد طلب من الله تعالى

العفو عن ذكر الأمور الهزلية، وصرح بالدافع من ذكرها فقال: «إذ لم تكن هي المقصودة منه بالكلية، وإنما أتينا بها لقص الإحماض وإجماع العقول، إذ الدّأب على الجدّ مما يصيرُه في حيز المملول».⁵⁷

خاتمة البحث

خرجنا من هذا البحث بجملة من النتائج العلمية يمكن إجمالها في ما يأتي:

1 — يعد التنسي واحداً من العلماء الجزائريين الذين ساهموا بقسط وافر من البحث العلمي في بناء الحضارة المعنوية بحاضرة تنس وغرب الجزائر خاصة والعالم الإسلامي عامة من خلال مؤلفاته لا سيما كتابه نظم الدرر والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في التثر والنظم. فإنه كشف لنا عن همة تذكرنا بهمم العلماء الراسخين في العلم.

2 — إذا كان الشيخ الحافظ التنسي قد قلّد من سبقه من العلماء في ذكر موضوعات البديع المعنوي فإنه انماز باجتهاده في منهجيته المختصرة الميسرة للتعليم، وهذه خصيصة تميزت بها المدرسة المغربية.

3 — يركز التنسي على ظاهرة المصطلح العلمي، لعلمه بأنها مفاتيح العلوم، ولذا ألفيناه يهتم بذكرها في كل نوع أو قسم من أقسام البديع، بله يذكرها كلها إذا تعددت.

4 — ثقافة التنسي تبدو جليلة في تأليفه فهي ثقافة العالم المتضلع من علوم القرآن والفقه وشتى فنون العلم، لذا نجده يستشهد كثيراً بالقرآن والحديث النبوي. كما أنه خبير بعلم الشعر، بل هو يمارس طقوسه.

5 — للتنسي روح الشيخ الوقور المرح الذي يمارس تعليمية العلوم بتقنية صائبة تدفع الملل عن المتعلم من خلال المزج بين الجدّ والهزل كما علل ذلك في خاتمة مؤلفه.

وفي الأخير نسأل الله تعالى العفو والعافية فما وفينا حق هذا العالم في هذه العجالة التي رمنا فيها التعريف بهذا المؤلف، ومساهمة حاضرة تنس المحروسة في بناء صرح الحضارة الإسلامية بالجزائر المجاهدة، أحاطها الله تعالى بعزته التي لا ترام، وألبسها الدهر لباس الأمن والسلام. آمين والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

1. الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تأليف العلامة إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي(ت 942هـ)، حققه وعلق عليه د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1/1422هـ. 2001م.
2. خزانة الأدب وغاية الأرب، تأليف العالم الأديب الشيخ تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، ودار البحار، الطبعة الأخيرة/2004م.
3. دلائل الإعجاز، تأليف عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، تحقيق أبو فهر، ومحمود محمد شاكر، الناشر مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بمكة، ط3، سنة1413هـ. 1992م.
4. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للشيخ بهاء الدين أبي حامد بن علي بن عبد الكافي السبكي(ت 773هـ)، تحقيق د. خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1/1422هـ. 2001م.
5. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تأليف أبي الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت. لبنان، وبدون.
6. كتاب البديع تصنيف عبد الله بن المعتز(ت 296هـ)تحقيق إغناطيوس كراتشكوفسكي(ت 1951م)دار المسيرة، بيروت. لبنان، ط3/1402هـ. 1982م.
7. مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، دار مكتبة الحياة، بيروت — لبنان، ط1 وبدون ذكر سنة الطبع.
8. مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي(ت 626هـ) تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2/1407هـ. 1987م. وط1/1403هـ. 1983م.
9. مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، تأليف أبي العباس أحمد بن محمد بن يعقوب المغربي (ت 1128هـ)، تحقيق د. خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، ط1، سنة1424هـ. 2003م. . 2001م.
10. نضرة الإغريض في نصرة القريض للمظفر بن الفضل العلوي (ت 656هـ)، تحقيق دة. نهي عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة طربين، ط1، سنة 1396هـ. 1976م.
11. نظم الدرّ والعقيان، القسم الرابع في محاسن الكلام لمحمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي، تحقيق نوري سودان، دار النشر فرانس شتاينر بقيسبادن، بيروت. لبنان، ط1 سنة 1980م.

الهوامش:

- ¹. نظم الدر والعقيان القسم الرابع، محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص 91
- ². المصدر السابق ص 93
- ³. المصدر السابق ص 97
- ⁴. مجمع الأمثال للميداني، ج 1 ص 464
- ⁵. المصدر السابق ص 33
- ⁶. المصدر السابق ص 33
- ⁷. انظر العمدة لابن رشيقي ج 1 ص 27. 31.
- ⁸. انظر دلائل الإعجاز ص 11
- ⁹. انظر نضرة الإغريض في نصرة القريض 293. 351.
- ¹⁰. انظر المصدر السابق ص 49. 96.
- ¹¹. نظم الدرّ والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص 183
- ¹². نظم الدرّ والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص 184 و 185
- ¹³. المصدر السابق ص 185
- ¹⁴ — انظر الأبيات في نظم الدرّ والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص 185 و 186
- ¹⁵. المصدر السابق ص 186
- ¹⁶. المصدر السابق ص 186
- ¹⁷. البديع ص 25
- ¹⁸. البديع ص 25
- ¹⁹. المصدر السابق ص 25
- ²⁰. المصدر السابق ص 25
- ²¹. نظم الدرّ والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص 195
- ²². نضرة الإغريض في نصرة القريض ص 49
- ²³. انظر المصدر السابق ص 70 و 71
- ²⁴. خزانة الأدب وغاية الأرب ج 1 ص 54
- ²⁵. نظم الدرّ والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص 196
- ²⁶. المصدر السابق ص 217
- ²⁷. المصدر السابق ص 214

28 — روى البخاري (2852)، ومسلم (1873) عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الْجَعْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِبِهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ : الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ)

29. نظم الدرر والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص 245

30. المصدر السابق ص 245

31. المصدر السابق ص 245 و 246

32. انظر المصدر السابق ص 247

33. هي التي لا يذكر معها شيء من قرائن المورى به ولا من قرائن المورى عنه، أو تذكر قرينة كل واحد منهما فتتساقطان. انظر المصدر السابق ص 256

34. — وهي التي يذكر معها قرينة المورى به، إمّا قبل لفظ التورية وإمّا بعده، أو يجتمعان. انظر المصدر السابق ص 256

35. — وهي التي يذكر معها ما يبين قرينة المورى عنه إمّا قبل لفظ التورية وإمّا بعده، أو يجتمعان. انظر المصدر السابق ص 256

36. وهي ما كان المعنى البعيد فيه لا يخطر بالبال إلا بذكر ما ينبه عليه. انظر المصدر السابق ص 256

37. المصدر السابق ص 268

38. انظر مفتاح العلوم ، ص 423. 429

39. انظر الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ج 2 ص 368

40. انظر مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ج 2 ص 486

41. انظر الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم لابن عربشاه ج 2 ص 369

42. الكهف 17

43. هود 24

44. انظر البيت في المصدر السابق ص 268

45. البقرة 282

46. نظم الدرر والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص 276

47. انظر عروس الأفراح في شرح بكي تلخيص المفتاح ج 4 ص 337

48. نظم الدرر والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص 285

49. انظر المصدر السابق ص 285. 297

50. انظر المصدر السابق ص 299. 308

⁵¹. انظر المصدر السابق ص308

⁵². عروس الأفراح في شرح بكيتهلخيص المفتاح ج4 ص421

⁵³. نظم الدرر والعقيان القسم الرابع محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم ص309

⁵⁴. المصدر السابق ص309 و310

⁵⁵. المصدر السابق ص310

⁵⁶⁵⁶⁵. انظر المصدر السابق ص311

⁵⁷. المصدر السابق ص334